في برج بابل الجديدة:

قمة عربية لبناء "الأصنام" وأشياء أخرى أكثر انهيارًا!

أنيس منصور

تعقيب

سوف ينعقد مؤتمر القمة الحادى عشر فى عمّان بعد غد . وإذا كان الانعقاد حلا . فهو حل جزئى . لأن دولا عربية قد رفضته . . وهى دول أخرى غير التى رفضت المؤتمرين السابقين . وهكذا نرى أن العرب يتناوبون الرفض . وهذا هو التنوع الوحيد الذى أصبح ممكنا . .

وهذا المؤتمر – مثل المؤتمرات السابقة – أهداف واضحة . أول هذه الأهداف : أن هناك فراغا تركته مصر يجب أن تسارع الدول العربية بالأسف عليه . ولكن الأسف الدفين لن يكون أسفا ظاهرا . إنما الظاهر هو اتهام مصر بالخروج وبالخيانة . وهذا ما حدث وسوف يحدث . .

والفراغ الذى تركته مصر هو أنه قد عرى الأمة العربية من « غطائها الذهبى » فى بورصة المعاملات السياسية والعسكرية . فوجدت الأمة العربية نفسها أمام مشاكلها الكبرى . وفى مقدمة هذه المشاكل : إسرائيل . .

أما العرب فيرون أن محاربة إسرائيل ممكنة . ومصر ترى أن هذه الحرب بعبرها مستحيلة . وعلى الدول العربية أن تثبت أن مصر قد أخطأت . ولم تثبت الدول العربية ذلك . فلا تزال مصر – إذن – على حق . .

ولكى يفضح العرب مصر يجب أن يقفوا معا . ليحاربوا إسرائيل . ويطردوها بسرعة من ثلث سيناء وكل الجولان والضفة الغربية والقطاع والقدس . أو يقفوا على النزاع فى ضربة واحدة بإجلاء إسرائيل من إسرائيل . ثم يلقوا بها فى البحر ! فكما جاءت إسرائيل من العدم يجب أن تعود إليه ! . .

أو ربما أحس أعضاء المؤتمر أن الهجوم على مصر واتهامها وإدانتها لم يعد لحنا تتصفق له الجماهير . ولذلك يجب أن يغيروا لهجة الاتهام فيكون الهدف هو حشد كل القوى العربية والعالمية ضد إسرائيل . والعرب يملكون الرجال والمال . فرجال العرب يحاربون فى إيران ويحاربون ضد لبنان ويحاربون ضد نشاد وضد اليمن وضد عُمان . كما أن العرب بأموالهم يستطيعون أن يشتروا السلاح الأمريكى الأوروبى المتطور الذى يجعل الخليج ويقف عند مضيق هرمز . وكذلك السلاح السوفيتى الذى تستخدمه العراق وسوريا . كما أن العرب بأموالهم استطاعوا شراء القوات المرتزقة من كوبا وألمانيا الشرقية . وكذلك شراء الإرهابيين خاطفى الطائرات . ناسفى السفارات . قاتلى الأطفال الأبرياء . . .

وفى استطاعة العرب أيضا أن يوقفوا ضخ البترول فتجمد عروق أوروبا فى هذا الشتاء . . وفى استطاعتهم أن يرفعوا سعر الذهب . ويخفضوا سعر الدولار . ويرفعوا سعر الأراضى والعمارات . . وان يفتحوا كازينوهات القمار وينشطوا تجارة الرقيق الأبيض . .

إذن . فلابد أن يكون هدف هذا المؤتمر هو الاستعداد لمحاربة إسرائيل . لأن الشعب الفلسطينى لم يحصل على حقوقه بعد . . وأن إسرائيل لا تحترم قرارات الأمم المتحدة . وإسرائيل رغم غضب العالم كله . ما تزال تحتل الضفة والقطاع . ثم قررت ضم القدس . وغدا تضم الجولان . .

وعلى العرب أن يوقفوا إطلاق النار بعضهم على بعض . العرب على العرب . والعرب على الفرس . ولكن يبدو أن العرب لم يتفقوا على ذلك . . فلا العرب السوريون خرجوا من لبنان . ولا العرب المسلمون قد أدانوا الغزو السوفيتى لأفغانستان الإسلامية . ولا الغزو الشيوعى الأثيوبى للصومال العربية الإسلامية . .

إذن فما الذى اتفق عليه العرب ؟ . .

لم يتفقوا على وقف نزيف الدماء الإسلامية ولم يتفقوا على سفح الدماء العربية . . إذن فالعرب عاجزون عن حل مشاكلهم معا . فكيف يحلون مشاكلهم مع غيرهم : إسرائيل مثلا ؟ .

فى برج بابل الجديدة: قمة عربية لبناء "الأصنام" وأشياء أخرى أكثر انهياراً!

إن هذه الخلافات بين العرب وبين المسلمين لن تكون السطر الأول فى جدول أعمال المؤتمر حتى لا يغضب الغائبون من الحاضرين . . وحتى لا ينسحب الحاضرون تحت ضغط الغائبين . .

فإذا كان هذا هو مؤتمر القمة الحادى عشر . فهل هو الحادى عشر لأنه العاشر مكرراً ؟ هل هو مؤتمر القمة . لأن القمم عادة متباعدة . . ولأن القمم صامتة . . ولأن الحكام العرب مطالبون من شعوبهم بأن يفعلوا شيئاً . ولأنه ليس فى استطاعتهم إلا أن يجتمعوا ثم الضرورى أن يفعلوا شيئاً . ولأن الملوك والرؤساء يناقشون قضية خطيرة جدا . فلابد أن تكون الجلسات سرية . وأن يتواصوا بألا يعلنوا للناس شيئا ؟ .

فهل صحيح أنهم يتسترون على أمور خطيرة . أو أنهم يتسترون على جريمة خطيرة هى : أنهم لم يقولوا شيئا . ولن يقولوا . . ولذلك لم يفعلوا ولن يفعلوا ؟ ! . .

فإذا لم يكن هذا مؤتمر قمة . فهل هو – مثلا – مؤتمر أمراض الأمة العربية . والملوك والرؤساء هم الأطباء ؟ فليكن . فما هو الداء الذى تشكو منه الأمة العربية وماهى الوقاية وماهو العلاج ؟ . .

وإن لم يكن هؤلاء الملوك والرؤساء أطباء . فهل هم مهندسو العلاقات الاجتماعية والسياسية القومية والدولية ؟ فليكن . إذن فما هى الخطة التى وضعوها وما هى الطرق التى رصفوها . وماهى الأنفاق التى أنفذوها من جانب إلى جانب ؟ . .

وإن لم يكن هؤلاء المؤتمرون مهندسين . فهل هم خطباء وشعراء اتحة العربية ؟ فليكن . ولذلك فسوف نسمع الخطب القديمة وقد أعيدت صياغتها . وقد يلقى أحد الزعماء قصيدة ويهتز لها الحاضرون طربا – فتلك عادة عربية قديمة،وسوف تضيع أصداء هذه الكلمات البليغة الفصيحة . كما ضاعت قبلها مجلدات من الشعر الذى تحرر من القافية ولم يتحرر من المعنى الواحد . مما أدى إلى هذا التناقض : شعر حر . ولكن عموده المثل . فهو « حر عمودى » أيضا ! . .

فإن لم يكن الحكام والملوك شعراء فهل هم دراويش . يواجهون المصائب بالانشغال فى الدعوات والأذكار وإطلاق البخور وانتظار العطاريت والجن أن تحل لنا مشاكلنا ؟ فليكن . فقد حدثنا مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى أننا قاومنا الإنجليز فى بليس بهذه الدروشة أيضا . وانهزمنا . وكانت الهزيمة عقابا لنستحقه على جريمة الغيبوبة فى حضور الكوارث ! . .

وعلى الرغم من أن الملك حسين هو الذى سوف يرأس المؤتمر – لأنه صاحب الدعوة . فإنه أقل استحقاقا لهذه الصدارة . فهو على علاقة طيبة جدا بإسرائيل . وهو موضوع الرهان فى الانتخابات الإسرائيلية القادمة . .

فالحكومة الاسرائيلية ترى أن الملك حسين فى جيبها . والمعارضة قد أثبتت أن الملك حسين هو « البديل » . ولذلك فالمعارضة الإسرائيلية تصف الملك حسين . بأنه « البديل الأردنى » أو « الاختيار الأردنى » . وان المعارضة على يقين من أن الملك حسين هو وحده الذى يستطيع كل شئ . والذى يستطيعه الملك حسين هو إقامة دولة أردنية أكبر وأوسع تضم الضفة الغربية – كلها أو أكثرها . وأن المعارضة تريد أن « تنفرد » بالملك حسين فى مرحلة تالية . وعلى الملك حسين أن يخلق الجو المناسب لذلك . أما هذا الجو فجاهز فى إسرائيل حكومة ومعارضة . . ولكن المطلوب منه الآن هو « تجهيز » السعودية والعراق والشعب الفلسطينى لهذا « البديل الأردنى » . أما المكافأة التى وعدوه بها فهى الضفة الغربية . فهل الشعب الفلسطينى الذى ذهب الملك حسين والذى بعث بالسيد عرفات نائبا عنه فى مؤتمر القمة يعلم ذلك ؟ ان السيد ياسر عرفات يخاف من الملك حسين الذى يخاف من سوريا التى يخاف من العراق التى يخاف من إيران التى يخاف من السوفيت . .

فهل صحيح – إذن – أن الملك حسين هو الذى يرأس مؤتمر الملوك والرؤساء ؟ ليس صحيحا . إن الذى يرأس المؤتمر هو : الخوف . . ربما كان الخوف أستاذا للحكمة وحسن التقدير . ولكن الخوف أيضا هو أستاذ العجز والشلل . وفى نفس الوقت هو أبو الثورات كلها . . فإذا لم يسفر الخوف فى داخل المؤتمر عن شئ بين هؤلاء الجالسين معا . فهل يوجد خوف آخر من الشعوب – أى خوف الملوك والرؤساء من شعوبهم ؟ ! . .

وكما يحدث قبل وأثناء انعقاد مؤتمرات القمة . يحدث قبل انعقادها أيضا : مساومات ماديه . .

فسوريا طلبت من المملكة السعودية والكويت معا ١٣ مليار دولار . . وقد تلقت سوريا – سبعة مليارات ! . .

وطلبت سوريا من ليبيا عشرة مليارات من الدولارات . ولم يصلها دولار واحد ولن يصل ! . .

والأردن حصلت على ثلاثة مليارات من السعودية والكويت . .

والجزائر طلبت من السعودية ان تبنى لها مدينة « الأصنام » . وقد وافقت على ذلك . ثم عادت الجزائر فطلبت من الكويت أن تبنى « الأصنام » . فوافقت على ذلك . ولم تكتشف السعودية والكويت معا أنهما دفعتا الثمن مرتين إلا يوم الخميس الماضى . عندما أعلن ذلك أحد البنوك السويسرية ؟ ! . .

حتى العراق طالبت كل دول الخليج بأن تساهم فى بناء المدن والأنابيب والمحطات التى هدمها الايرانيون . فقد كان العراق يدافع عن العرب ضد الفرس . ووافقت كل دول الخليج . وفى مقدمتها السعودية ! . .

وإذا كان اجتماع مؤتمر القمة قد تم بسعودية وبطء . فسوف يقبض بسهولة وبسرعة . والنتيجة واحدة : عجز عربى عن فعل شىء يخدم العرب أو يهدم إسرائيل . .

الإمام الخمينى . .

الملك حسين . .

حافظ الأسد

ياسر عرفات

ويؤسفنا – طبعا – أن يعجز العرب عن إنجاز شيء فهي فضيحة عربية. وهذه الفضيحة سوف تجعل العرب يتخذون مواقف مذلة. وسوف يبحثون عن ضحية أو فاعل خير لكل ما أصاب الأمة العربية. وهذا الفاعل الوحيد هو: مصر..

ومع أن هذه النتيجة معروفة مقدما. ومع أن هذه الحقيقة هي التحدي الأكيد لقدرات العرب المادية والأدبية. فهي أيضا العبء المستمر على مصر. فسيظل العرب في عنادهم لا يتراجعون. وسوف يبحثون عن وسيلة محترمة لإرجاعهم إلى مصر. وسوف تكون هناك أطراف كثيرة تحاول التوفيق بين الأشقاء أو توسيع الشقة بين الأشقاء..

وهذا يدل مرة أخرى على أن الزعامات العربية تفتقدها الشجاعة: مواجهة الواقع بالعقل. والاتجاه إلى الهدف بإخلاص. لقد كانت مأثرة السادات بالسلام. قلة هذا الأسلوب السياسي الذي لم يفلح العرب في شراء بديل عنه.

وإذا كانت العلوم الفلكية والحيوانية والنفسية قد عرفت رجالا أفذاذا أدانتهم شعوبهم بعض الوقت. لتكفر عن ذلك فيما بعد. فهو السياسة أيضا. فالعالم الفلكي الإيطالي برونو. أدانوه وحاكموه لأنه كشف عن حقيقة كان فيها سابقا لعصره وأوانه. وهي: أن الأرض ليست إلا ذرة رمل في هذا الكون. وأنه ليس صحيحا أن الإنسان هو مركز الكون..

وعالم الحيوان داروين قد أعلن تقارب السلالات الحيوانية. والتشابه بين الإنسان والقرود. ولم يستبعد أن تكون من أصل واحد.. غير أن الإنسان تقدم لأنه استطاع أن يطور نفسه. فاتهموا داروين وأهانوه وكفروه!

وعالم النفس فرويد استعان على تفسير أغوار النفس البشرية بالمناهج العلمية الأخرى. ولم يجد حرجا في أن يماثل بين شعور الإنسان بالحيوانات ومخاوف الكهوف.. واتهموه بأنه هو نفسه الحيوان الذي تنكر للإنسانية. وأنه بلا قلب وأنه حطم رومانسية الخالدين في عقول التاريخ وعرضه..

وغير هؤلاء كثيرون في كل علم من العلوم. وجريمتهم: أنهم استطاعوا أن يروا ما لا تراه شعوبهم. وأنهم سبقوهم إلى المستقبل الذي يلمسونه يقين وإيمان..

ومن المؤكد أن مؤتمر القمة سوف يضيف فشلا جديدا للفشل قديم. لسبب بسيط جدا هو أن هذا المؤتمر ليس إلا «جبهة للمصالحة». يقدم كل رئيس ويعانق الرئيس الآخر ويقبله ثلاث مرات: مرتين على الخدين والثالثة على الجبهة. وهذا هو الصفاء العرقي. والنقاء السياسي. وبناء الجسور العاطفية بين العواصم العربية. وإذا كانت العانقة والمقابلة – من القبلات – «وعفا الله عما سلف». «والدم لا يكون ماء»... إلى آخر هذه التعبيرات! فلا سلام في الأمة العربية. ولا وطن للشعب الفلسطيني!

ولو كان الأمر بيدي لوزعت على الرؤساء والملوك كتابا مهما للمؤرخ الأمريكي: جون برونسون عنوانه: «كان الفشل مؤكدا». والكتاب يروي قصة فشل ثلاثة من القادة العسكريين. وقد أدى هذا الفشل الذريع إلى خروجهم من معارك الدمار. بالعار الأبدي. الأول هو الجنرال الإنجليزي بولر (١٨٣٩ – ١٩٠٨) كان رئيس الأركان في جنوب أفريقيا. واشترك في الحرب ضد البوير. وواجه البوير بهجوم على جبهة عريضة جدا. فانهزم تماما. وسحبه الإنجليز من المعركة بينما القتال لا يزال مستمرا.

والقائد الثاني هو الجنرال الروسي كوروباتكين (١٨٤٨ – ١٩٢١) كان ضابطا لامعا. متحمسا ظريفا وخطيبا فصيحا. واشترك في الحرب ضد اليابان في منشوريا. واستطاعت القوات اليابانية أن تقتل قواته ليلا. وكاد هو يسقط في أيديهم. فأعفوه من جميع مناصبه سنة ١٩٠٥..

أما الثالث فهو الجنرال الألماني فون مولتكه (١٨٤٨ – ١٩١٦). لم تكن له مجازر حربية كبرى. إنما هو فقط حفيد القائد الكبير فون مولتكه (١٨٠٠ – ١٨٩١) هذا القائد الحفيد انهزم أمام الفرنسيين في معركة المارن في الحرب العالمية الأولى. وأصيب بانهيار عصبي. وأدخلوه مستشفى الأمراض العقلية..

أما ما الذي فعله المؤرخ الأمريكي مع هؤلاء المنهزمين؟ فقد جمعهم معا في مؤتمر قمة من حياله. وأدار الحوار بينهم. وتركهم ليتفقوا على شيء واحد: ما هو الدرس الذي يجب أن يتعلمه جنود المستقبل من فشلهم التاريخي الشنيع؟

يقول المؤلف: ورجعت. ووقفت أمام الباب. وكان الصمت تاما. وفتحت الباب فوجدتهم قتلى. لقد نجحوا أخيرا: فقد انتصروا على أنفسهم!..

ولا أقترح على مؤتمر القمة العربي شيئا من ذلك. فلن يفلح الملوك والرؤساء في أن يواجهوا أنفسهم. ولن ينتصروا على خوفهم.. ولذلك فسوف يتكرر مؤتمر القمة. ولنفس الأهداف. في عواصم مختلفة. ويبقى كل شيء على ما هو عليه: في انتظار الانتخابات الأمريكية. والرئيس الأمريكي الجديد. والرئيس الفرنسي الجديد ومن سيجيء بعد الخميني وصدام حسين وحافظ الأسد والقذافي!..

❀❀❀

وإذا كان الحاضر قاسيا على الملوك والرؤساء. فإن المستقبل سوف يكون أقسى. فالتاريخ مثل «زوجة الأب» لا يرحم. فنحن نصنع التاريخ. وليس هو الذي يصنعنا. وعجلة التاريخ في حاجة إلى طاقة دافعة. هذه الطاقة هي شجاعة الزعماء. وبلا شجاعة يتوقف المجتمع. وبلا بصيرة الزعماء يكون الطريق بلا هدف..

وقد حدث كثيرا في التاريخ. أن حاكمت الشعوب رجالها الذين انفتحت لهم «طاقة القدر» ولم يفتحوا أفواههم بقرار..

وفي التاريخ أيضا أن أحد الأباطرة الرومان قد حاكم البابا فورموزو بعد وفاته في القرن التاسع الميلادي. أخرجه من قبره وأجلسه في المحكمة. وحاكمه وأدانه. ثم جرده من مسوح البابوية. وألقى به في نهر التيبر!..

ربما لا يهتم بعض الملوك والرؤساء بالتاريخ. فهو لا يعنيهم. فهم قد جاءوا إلى مقاعدهم بلا تاريخ. إلا شهادة الميلاد. ولذلك فليس لهم ماض. ولا مستقبل! ولكن علمنا التاريخ أن الذين بلا ماض ولا مستقبل. كان لهم حاضر أليم. ونحن نرى بوادر الحاضر الأليم..

ومن بين هذا الحاضر الأليم هذه المؤتمرات.. التي هي تجديد لمؤسسات قديمة: برج بابل.. الذي أقيم عندما كان الشعب البابلي واحد الكلمة واللسان. فلما التقى الشعب في داخل البرج اختلفت لغاتهم وضجاتهم فسقط بهم البرج!..

هل أقاموه على الكلام. فأسقطه الكلام؟..

هل لأنهم أقاموه للتطاول على الله – منتهى السذاجة – فهدمه الله عليهم..

فإن لم يكن هذا برج بابل القائم. فهل هو «برج بيزا» المائل؟..

وإذا لم يكن شيئا من ذلك فما هو؟..

ليس الغرض من هذا المؤتمر هو بناء الأصنام أو مدينة الأصنام. إنما هو بناء أشياء أخرى أكثر انهيارا!

❀❀❀

فإن كان يعنيك المزيد من الوضوح وإن كان لديك متسع من الوقت والصبر. فارجع إلى أول المقال – فقد حاولت إزالة الضباب السياسي الممتد من الخليج إلى المحيط. فإذا فعلت. فواجبي أن أشكرك! □